

الفصل الرابع والعشرون

والبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد^١

كنت أريد أن أحدثك عن شاعرٍ لا أشك في أنه كان أبعد الشعراء أثرًا في عصره، ولا شك في أنه كان من أنبههم ذكرًا، ولا أشك في أنه كان من أشدهم إمعانًا في المجون، وإسرافًا في الفسق والفجور، وهو والبة بن الحباب، ولكنني مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيءٍ ذي غناء؛ لأن الله لم يقدر لشعره البقاء، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة، فذهبت حياته كما ذهب أدبه، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل، إلا أن تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار، فيه طرف من أخبار هذا الرجل وأشعاره.

ونحن مضطرون إلى أن نُعْرِضَ عن درسه الآن، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين، الذين ندرسهم في هذه الفصول، نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر؛ لأننا واثقون بأنه قد كان منهم، ومن زعمائهم، بل كان أستاذًا من أساتذتهم في القول والعمل أيضًا، فقد كان والبة بن الحباب أستاذًا لأبي نواس، تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان، ويظهر أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة، لم يتخرج من روايتها أبو الفرج، ولم يتخرج من روايتها

^١ نُشِرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ / ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤.

أبو نواس نفسه، ولعل والبة هو الذي مهد لأبي نواس هذه السبيل المنكرة، التي سلكها طول حياته، فجعلته مبغضاً، وجعلته محبوباً إلى الناس، جعلته مبغضاً لسوء سيرته، وجعلته محبوباً لحسن شعره، وشدة ظرفه، وتقدمه في الأدب إلى حدٍّ لم يبلغه كثير من معاصريه.

كان والبة بن الحباب هذا عربياً صميماً، من بني أسد، وكنا نود لهذا السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره، لنعرف كيف كان بلاء العرب الصريحين في الزندقة والمجون، وهذا اللون من ألوان العبث، فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالي، أو من يشك في عربيتهم، أما والبة فلم يكن مولى، ولم يكن نسبه موضع شك، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى أن نكتفي بهذه الأخبار القصيرة المبتورة التي نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة، وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من أبي نواس، ولا من مطيع، ولا من حماد، وربما كان أشد منهم صراحة في القول، وإسرافاً في الفحش، فالناس يتحدثون أن المهدي أو الرشيد كره لقاؤه ومنادمته، لبيتين قالهما، فجعل منادمته شراً على كل نديم، أما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه؛ لأننا لا نحفظ منه إلا أبياتاً، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعاً في وصف الخمر وما يتصل من العبث والغزل والمجون، وإذا ذكرنا الغزل، فإنما نذكر الغزل بالغلما، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر، وأنه حاول أن يهاجي أبا العتاهية، فلم يستطع أن ينال منه شيئاً، بل لم يستطع أن يثبت في بغداد، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هارباً أو كالهارب.

فلندع والبة إذن، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر، وإلى من ننصرف؟ ننصرف إلى أبان بن عبد الحميد اللاهقي؛ فهو خليق أن نقف عنده حيناً، لا لأنه يمكن أن يقرن إلى بشار، أو إلى مطيع، أو إلى أبي نواس، فهو أقصر باعاً، وأضيق ذرعاً من أن يثبت لرجلٍ من هؤلاء في الشعر وقوته، واختلاف فنونه، وحسن لفظه، ورقة معانيه، وصدق لهجته، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحدٍ من هؤلاء في هذه الخلال، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى، ويفوقهم في بعضها، وله نواحٍ تستحق العناية، وتدعو إلى التفكير.

لم يكن خفيف الظل، ولا محبوباً إلى الناس، وإنما كان فيه شيء من الثقل ينفر منه، ويصرف عنه، وكان الذين يحبونه قليلين، ولن يكون حظه من حبا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه، قلنا: إنه يثبت لهؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها، يثبت لهم في الزندقة، فلم يكن أقل منهم عبثاً ولا مجوناً، أو قل: لعله كان أقل منهم

عبثاً ومجوناً في اللفظ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة، لا عن شك أو رغبة في اللذة، والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة، تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين، أحدهما يكره العرب ودينهم، ويزدريهم ويزدري دينهم، ويضمّر لهم ولدينهم حقداً شديداً، والآخر يظهر الإسلام ويتكلفه، ويتمدح به، ويحرص على أن يحسن رأي الناس فيه، من هذه الناحية هو قريب من بشار، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه، فكان إلى العبث اللفظي، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والجحود، يقومان على عقيدة ثابتة، وعلى رأي سياسي بعينه.

كان أبان يكره العرب ويزدريهم، ولكنه كان في الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم، ويستفيد من هذا الخلاف الذي شجر بينهم، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها، كان فارسياً قبل كل شيء، يريد أن يثأر للفرس، ويعيد سلطانهم إلى الأرض، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور في العصر الذي كان يعيش فيه من طريق مباشرة، كما يقول أهل هذا العصر، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب، ويقوم مكانه سلطان فارسي، فلم يكن يطمع في ذلك، ولا يسمو إليه، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ في الانتقام للفرس، ورد السلطان الفعلي إليهم، إذا أخطأهم السلطان الشرعي واللفظي، وهي التقرب إلى الخلفاء، وأخذهم من مواضع الضعف، والسيطرة عليهم، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور، ويعتمدوا عليهم في ذلك، فتركوا السلطان الفعلي للفرس، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة، واسمها ومقامها العالي، وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول في ذلك العصر، بعد أن أخفقت تجربة أبي مسلم، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت، ولا لحزبه إلا الشر كله، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة، فأحسنوا العمل والتدبير، وتصرفوا تصرف الماهر ذي الحيلة الواسعة، والأمل البعيد، يسعى إليه في رفقٍ وثبات، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة، فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم، وأصابتهم تلك النكبة، التي كانت أعظم وقعاً، وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم، وكان أبان صديقاً للبرامكة، مُتصلاً بهم أشد اتصال، يستشيرونه، ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جدها وهزلها، صعبها وهينها، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي، وبالغوا في ذلك، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات، فغضب الشعراء لذلك،

وكان أشدهم غضباً أبو نواس، الذي كان يكره البرامكة كرهاً شديداً، كما قلت لك، حينما كنت أدرس أبا نواس، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة، تستحق أن نقف عندها حيناً؛ لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه، ولا سيما أن أباناً قد عجز عن أن يرد على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس، فقد هجاه أبو نواس، فاتهمه بالكفر والزندقة، اتهاماً صريحاً منكرًا، لا يخلو من فحش، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية، فرد رد الضعفاء، فشتم أبان نواس، وناله في أمه وأبيه ... ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة، ولا يعفي من إثم، وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس يهجو بها أبان بن عبد الحميد، وهي تمثل رأي أبان حقاً:

شَهِدْتُ يَوْمًا أَبَانًا	لَا دَرَّ دَرُّ أَبَانٍ
وَنَحْنُ حُضْرُ رِوَاقِ الْكُ	أَمِيرِ بِالنَّهْرَوَانِ
حَتَّى إِذَا مَا صَلَاةُ الْكُ	أَوْلَى دَنَّتْ لِأَوَانٍ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي	بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَكُلَّمَا قَالَ قَلْنَا	إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ
فَقَالَ: كَيْفَ شَهِدْتُمْ	بِدَا بَغَيْرِ عِيَانِ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى	تُعَايِنَ الْعَيْنَانِ
فَقُلْتُ: سُبْحَانَ رَبِّي!	فَقَالَ: سُبْحَانَ مَانِي!
فَقُلْتُ: عَيْسَى رَسُولٌ	فَقَالَ: مِنْ شَيْطَانِ
فَقُلْتُ: مُوسَى نَجِيُّ الْكُ	مُهِيمِنِ الْمَنَانِ
فَقَالَ: رَبُّكَ ذُو مَقْدُ	لَةِ إِذْنٍ وَلِسَانِ
أَنْفُسُهُ خَلَفْتُهُ	أَمْ مَنْ؟ فَقُمْتُ مَكَانِي
وَقُلْتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ	مَةِ وَذُو غُفْرَانِ
وَقُمْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي	عَنْ هَاذِلِ بِالْقُرَانِ
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى	بِالْكُفْرِ بِالرَّحْمَنِ
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى	بِالْعُصْبَةِ الْمُجَانِ
بِعَجْرَدٍ وَعُبَادِ	وَالْوَالِبِيِّ الْهَجَانِ
وَأَبْنِ الْإِيَّاسِ الَّذِي نَا	حَ نَخَلْتِي حُلُوانِ
وَأَبْنِ الْخَلِيعِ عَلَى رِبِ	حَانَةِ النَّدْمَانِ

إِنِّي وَأَنْتَ

فهذه القصيدة تمثل لا رأي أبان وحده، بل تمثل أيضًا رأي هذه الطائفة من الفرس، الذين أظهروا الإسلام دينًا، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم، ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضًا، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي؛ لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهبًا في السياسة، ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأي أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية، فهو يكره أن يقرنه إلى مطيع، وحماد، والحسين بن الضحاك الخليع، ووالبة بن الحباب، وفي الحق أنه لا يقرن إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا، ولكنه يفوتهم في الزندقة والإلحاد؛ لأنه كان يتخذ الكفر رأيًا، لا وسيلة إلى اللذة، ولست أروي لك رد أبان على أبي نواس، فهو فحش كله، وتستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت، على أنه لا يدفع حجة، ولا يبرئ من تهمة، وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها أبو نواس في هجاء أبان، دون أن يعرض لدينه أو رأيه، وإنما أراد أن يجزي شتمًا بشتم، وسبًا بسب، ولست أرويها كلها، وإنما أترك منها ما فيه فحش:

صَحَّفَتْ أُمِّكَ إِذْ سَمَّ	سَمَّتْكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرَتْ بَاءَ مَكَانِ التَّنْ	تَاءٍ تَضْحِيْقًا عَيَانَا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ	لَمْ تُرِدْ إِلَّا أَتَانَا
...

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التي أعطاها هو من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة، فكتب إليهم هذه القصيدة، وستقرؤها فتري أن الرجل معجب بنفسه، مدلل بعلمه وأدبه، تياها لا حد لتيهه وغروره، وهي:

أَنَا مِنْ بُغِيَةِ الْأَمِينِ وَكُنْزُ	مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُو أَرْبَاحِ
كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، خَطِيبٌ، أَدِيبٌ	نَاصِحٌ، رَاجِحٌ عَلَى النَّصَاحِ
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَحْفُ مِنْ الرَّيِّ	شَشَّةٍ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
...
لِي فِي النُّحُورِ فِطْنَةٌ وَاتِّقَادٌ	مِ بَقُولِ مُنَوَّرِ الْإِفْصَاحِ
ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلْعَلِّ	

ثم أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ لِلشَّعْبِ
وَضَرِيفُ الْحَدِيثِ مِنْ كُلِّ فَنٍّ
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَأَتْ عِنْدِي حَدِيثًا
فبِمَثَلِي تَخْلُو الْمُلُوكُ وَتَلْهُو
أَيْمَنُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدِ
أَبْصَرَ النَّاسَ بِالْجَوَارِحِ وَالْخَيْئِ
كُلُّ ذَا قَدْ جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمُشَمَّرِ ثَوْبِي
لَوْ رَمَى بِي الْأَمِيرُ — أَصْلَحَهُ اللَّهُ
مَا أَنَا وَاهِنٌ وَلَا مُسْتَكِينٌ
لَسْتُ بِالضَّخْمِ يَا أَمِيرُ وَلَا الْقَرْزِ
لِحِيَّةِ جَعْدَةَ وَوَجْهِ صَبِيحِ
إِنْ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَايَنَ مِنِّي

رِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ
وَبَصِيرٍ بَتُرْهَاتِ الْمَلَّاحِ
هُوَ عِنْدَ الْمُلُوكِ كَالْتُّفَّاحِ
وَتَنَاجِي فِي الْمَشْكَلِ الْفَدَّاحِ
لِغَدُوِّ دَعِيَّتِ أَوْ لِرَوَّاحِ
لِوَالْخَرْدِ الْحِسَانِ الصُّبَّاحِ
عَلَى أَنْبِيِ ظَرِيفِ الْمُزَّاجِ
هـ وَلَا الْمَاجِنِ الْخَلِيعِ الْوَقَّاحِ
رِمَاحًا ثَلَمْتُ حَدَّ الرَّمَّاحِ
لِسَوَى أَمْرِ سَيِّدِي ذِي السَّمَاحِ
مِ وَلَا بِالْمُجَحَّدِ الدَّخْدَاحِ
وَأَتَّقَادُ كَشْعَلَةِ الْمِضْبَاحِ
شَمْرِيًّا كَالْبُلْبُلِ الصَّيَّاحِ

أرأيت شاعراً أشد غروراً وافتناناً بنفسه من هذا الشاعر! على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بأبي نواس عند البرامكة، فاغتاظ أبو نواس، ونقض عليه قصيدته هذه، فقال:

أَنْتَ أَوْلَى بِقَلَّةِ الْحِظِّ مِنِّي
قَدْ رَأَوْا مِنْهُ حِينَ غَنَى لَدَيْهِمْ
تُمْ بِالرَّيِّشِ شَبَّهُ النَّفْسَ بِالْخَفِّ
فَإِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيخِ رَضَوِي
لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنْ صِفَاتِكَ شَيْءٌ
لِحِيَّةِ ثَطَّةٍ وَوَجْهِ قَبِيحِ
فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمُلُوكُ عَلَى الْخُرِّ
فِيكَ تَيْهٌ وَفِيكَ عَجْبٌ شَدِيدٌ
بَارِدُ الظَّرْفِ مُظْلِمُ الْكِدْبِ دُو حَزْرٍ
فَالَّذِي قُلْتَ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ

يَا مَسْمَى بِالْبَلْبَلِ الصَّيَّاحِ
أَخْرَسَ الصَّوْتِ غَيْرَ ذِي إِفْصَاحِ
عَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
عِنْدَهُ خِفَّةٌ نَوَى الْمِسْبَاحِ
غَيْرَ خَلِقِ مُجَحَّدِ دَخْدَاحِ
وَأَنْثِنَاءَ عَنِ النَّهْيِ وَالصَّلَاحِ
قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ
وَطِمَاحٍ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحِ
قِ مُعِيدُ الْحَدِيثِ نَزْرُ الْمُزَّاجِ
وَالَّذِي قُلْتَ ذَاهِبٌ فِي الرِّيَّاحِ

كان أبان إذن مسرفاً في حب نفسه، والإعجاب بها، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان، اتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس، كما اتصل بينه وبين رجل آخر، كان صديقاً له، وهو المعذل، ولكن هجاءه قبيح، ليس منه ما يصلح للرواية، على أن المتانة تتقصه، وهو من هذا الهجاء الذي تسمعه، فتتفر من قائله، لا ممن قيل فيه، ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتوناً بنفسه، ولا قبيح اللسان فحسب، بل كان شريراً قاسياً، يؤثر الشر، ويجد فيه لذة، وقد روى له أبو الفرج قصتين، كلتاها تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر، كما أن كليهما تعطينا صورة من شعره، ومن الحياة في عصره، قالوا: كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقيفي يقال له محمد بن خالد، وكان عدواً لأبان، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة، هي عمارة بنت عبد الوهاب، مولاة جنان، التي كلف بها أبو نواس، وأكثر فيها الشعر، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة، فاغتاظ أبان لهذا الزواج، وقال هذه القصيدة، التي بلغت عمارة، فأفسدت زواجها:

وَالْفَرْشُ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةُ	لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَةَ
مَنْ فَوْقَ نِي الدَّارِ وَنِي الدَّارَةَ	وَاللَّوْزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ
طَبَّلاً وَلَا صَاحِبَ زَمَارَةَ	وَأَحْضَرُوا الْمُلهِينَ لَمْ يَنْزُكُوا
مَحْمَدُ زَوْجُ عَمَّارِهِ	قُلْتُ لِمَاذَا؟ قِيلَ: أَعْجُوبَةُ
وَلَا رَأَتْهُ مُدْرِكًا نَّارَهُ	لَا عَمَرَ اللَّهُ بِهَا بَيْتَهُ
وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَهُ	مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ
تَنْوِرُ بَلْ مَحْرَاكُ قَيَّارَهُ	أَسْوَدُ كَالسَّفُورِ يُنْسَى لَدَى التِّ
أَرْغَفَةَ كَالرَّيْشِ طَيَّارَهُ	يُجْرِي عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةَ
إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَهُ	وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ حَوْفِهِ
فَهَذِهِ أَخْتُكَ فَرَّارَهُ	وَيَحِكُ فِرِّي وَأَعْصَبِي ذَا بِهِ
ثُمَّ اطْفِرِي إِنَّكَ طَفَّارَهُ	إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقِظِي

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه الأبيات:

تَخَافُ أَنْ تَصْعَدَهُ الْفَارَةُ	فَصَعِدْتُ نَائِلَةً سُلَّمًا
فَإِنَّهَا لَخِنَاءُ غَرَّارَهُ	«سُرُورُ» غَرَّتْهَا فَلَا أَفْلَحْتُ
إِنَّ لَهَا نَفْثَةَ سَخَّارَهُ	لَوْ نِلْتُ مَا أَبْعَدْتُ مِنْ رَيْقِهَا

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونكرًا، وأقبح منها عاقبة وأثرًا، قالوا: كان لأبان جار، وكان يعاديه، فاعتل علة طويلة، وأرجف أبان بموته، ثم صح من علته، وخرج، فجلس على بابه، فكانت علته من السل، وكان يكنى أبا الأطول، فقال له أبان:

أَبَا الْأَطْوَلِ طَوَّلْتَ	وَمَا يُنَجِّيكَ تَطْوِيلُ
بِكَ السُّلِّ وَلَا وَاللَّهِ	مَا يَبْرَأُ مَسْلُورُ
فَلَا يَغْرُرُكَ مِنْ ظَنِّ	نِكَ أَقْوَالُ أَبَاطِيلِ
أَرَى فِيكَ عِلْمَاتٍ	وَلِلْأَشْيَاءِ تَأْوِيلُ
هَذَا قَدْ بَرَى جِسْمُ	كَ وَالْمَسْلُورُ مَهْزُولُ
وَدِبَانًا حَوَالِيكَ	فَمَوْقُودٌ وَمَقْتُولُ
وَحَمَى مِنْكَ فِي الْعِظْمِ	فَأَنْتَ الدَّهْرُ مَمْلُورُ
وَأَعْلَمًا سِوَى ذَلِكَ	تُورِيهَا السَّرَاوِيلُ
وَلَوْ بِالْفِيلِ مِمَّا بـ	كَ عَسْرٌ مَا نَجَا الْفِيلُ
فَمَا هَذَا عَلَى فِيكَ	قُلَاعٌ أَوْ دَمَامِيلُ
وَمَا بِالْ مُنَاجِيكَ	يُؤَلِّي وَهُوَ مَعْلُولُ
فَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَوْفِ	فَقَدْ سَالَ بِكَ النِّيلُ
وَذَا دَاءٌ يُزَجِّيكَ	فَلَا قَالَ وَلَا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب، ودخل منزله، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات.

قلت: إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر، التي اعتادها الشعراء، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين، نعني أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله، وهو فن الشعر التعليمي، وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية، ولا سيما في العصور المتحضرة، كعصر العباسيين، وإنما قيمته في تلك العصور التي لا حظ لها من علم ولا من حضارة، والتي لا تنتشر فيها الكتابة، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد؛ لأنه أيسر حفظاً من النثر، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني «هسيود»، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح، ونظم طائفة من القصائد، فيها جمال شعري لا بأس به، ولكنه قصد بها

إلى تقييد طائفة، مما كان اليونان يرونه علمًا في ذلك الوقت، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم، كما نظم هذه القصيدة المشهورة، التي تعرف بالأعمال والأيام، والتي بين فيها فصول السنة، وما يلائمها من ضروب الزراعة، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن، إلى غير ذلك، مما تجده في هذه القصيدة الجميلة.

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي، فأنشأ كثيرًا من الشعر التعليمي، طرق فيه فنونًا مختلفة، من العلم والحكمة والدين، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف، واكتفى جعفر بأن يكون راويته، وروى أبو الفرج أبياتًا أربعة من هذا النظم، ولكن صديقًا لي دلي على كتاب، أو قطعة من كتاب مخطوط، توجد في دار الكتب المصرية، وهو كتاب الأوراق للصولي، وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة، ولست أريد أن أروي لك منه إلا شيئًا قليلًا جدًّا، فهو لا يستحق الرواية، ولا العناية في مثل هذا الحديث، الذي نعى فيه بالأدب والفن، أكثر مما نعى بالكلام المنظوم، وهذا أول النظم:

وهو الذي يدعى كليلة دمنه	هذا كتاب أدب ومحنه
وهو كتاب وضعته الهند	فيه ضلالات وفيه رشد
حكاية عن السن البهائم	فوصفوا آداب كل عالم
والسخفاء يشتهون هزله	فالحكماء يعرفون فضله
لذ على اللسيان عند اللفظ	وهو على ذاك يسير الحفظ

وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور:

يرضى من الأرفع بالأحس	وإن من كان دنيء النفس
يفرح بالعظم العتيق اليأس	كمثل الكلب الشقي البأس
شيء إذا ما كان لا يغيرهم	وإن أهل الفضل لا يرضيهم
ثم يرى العير المجد هربا	كالأسد الذي يصيد الأرنب
ويتبع العير على أدباره	فيرسل الأرنب من أظفاره
بلقمة تقذفها في فيه	والكلب من دقته ترضيه

وعلى هذا النحو العادي الذي لا جمال فيه، إلا أنه بريء من الركة، يمضي أبان في نظم كتابه، على أنه في هذا ناظم لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة، إلى تأليف كتب منظومة، فنظم قصيدة طويلة في الصوم والزكاة، روى منها الصولي طرفاً، وهذا أولها:

لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ	هَذَا كِتَابُ الصَّوْمِ وَهُوَ جَامِعٌ
فَضْلاً عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانٍ	مَنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلُ فِي الْقُرْآنِ
مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبِعِ الْمَرْضِيِّ	وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ
كَمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ وَعَلَّمَا	صَلَّى إِلَهَهُ وَعَلَيْهِ سَلَّمَ
مَنْ أَتَرَ مَاضٍ وَمِنْ قِيَاسِ	وَبَعْضُهُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ
رَأْيِ أَبِي يُوسُفَ مِمَّا اخْتَارُوا	وَالْجَامِعُ الَّذِي إِلَيْهِ صَارُوا
فَرَمَضَانَ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضَ	قَالَ أَبُو يُوسُفَ: أَمَّا الْمُفْتَرَضُ
مَنْ حِنْثٌ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ	وَالصَّوْمُ فِي كَفَّارَةِ الْإِيْمَانِ
الصَّوْمُ لَا يُدْفَعُ بِالْإِنْكَارِ	وَمَعَهُ الْحَجُّ وَفِي الظُّهَارِ
لِرَأْسِهِ فِيهِ الصِّيَامُ فَافْهَمِ	وَخَطَأُ الْقَتْلِ وَحَلَقُ الْمُحْرِمِ
وَصَوْمُهُ مُفْتَرَضٌ مَوْصُوفٌ	فَرَمَضَانَ شَهْرَهُ مَعْرُوفٌ
مُظَاهِرٌ يَوْمًا عَلَى مُحَرَّرٍ	وَالصَّوْمُ فِي الظُّهَارِ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ
فَإِنَّ ذَاكَ فِي الصِّيَامِ مِثْلُهُ	وَالْقَتْلُ إِنْ لَمْ يَكْ عَمْدًا قَتْلُهُ
مُتَّصِلَانِ لَا مُفَرَّقَانِ	شَهْرَانِ فِي الْعِدَّةِ كَامِلَانِ
ثَلَاثَةُ أَيَامِهَا مَوْصُولَةٌ	وَالْحِنْثُ فِي رَوَايَةٍ مَقْبُولَةٌ
لِلْمُحْرَمِ الْحَالِقِ فِي الْإِحْرَامِ	وَمِثْلُهَا فِي الْعِدَّةِ الْآيَامُ
لَا بِأَسْ إِنْ تَابَعَهَا أَوْ فَرَّقَا	ثَلَاثَةٌ نَصُومِهَا إِنْ حَلَقَا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله، وأمعنا في الفقه إمعاناً، وكأننا نروي هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا.

ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم قصيدة طويلة سماها ذات الحلل، تناول فيها تاريخ الخليفة، وغير ذلك من موضوعات العلم، وانتهى فيها إلى المنطق، فألم به، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شيء.

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن، فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلاً، وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة، حينما نظم كليله ودمنة قد أطمعتة، فنظم القصائد الأخرى، ليصيب مثل ما أصاب.

وكان أبان شديد الحرص على المال، يضحى في سبيله بأشياء كثيرة، منها العقيدة والرأي وكان يحسد مروان بن أبي حفصة لمكانه من الرشيد، ولظفره بالصلوات الضخمة، والجوائز السنوية، فقد انتهى الأمر ببني العباس مع مروان بن أبي حفصة، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم، فغاض ذلك أبان بن عبد الحميد، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان، قال الرواة: فعاتب البرامكة، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتهاء به إلى الرشيد، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان، فقالوا له: يجب أن تذهب مذهب مروان، فتذم آل علي، فقال: والله ما أستحل ذلك، ثم أصبح فاستحله، وقال قصيدة طويلة، أثر بها بني العباس على بني أبي طالب، وأثبت فيها حق بني العباس في وراثته الخلافة دون بني علي، ودفعها إلى الفضل بن يحيى، فركب بها إلى الرشيد، فنالت صلواته وجوائز، وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة، فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان:

أَنْى يَكُونُ وَلاَيسَ ذَاكَ بِكائِنٍ لِبَنِي البَنَاتِ وَرِاثَةَ الأَعْمَامِ

وأول القصيدة:

نَشَدْتُ بِحقِ اللهِ من كان مسلماً	أَعْمُ بما قد قلته العُجم والعَرَبُ
أَعْمُ رسولِ اللهِ أَقربُ زُلْفَةً	لديه أم ابن العمِّ في رُتَبَةِ النسبِ
وأيهما أولى به وبعده؟	ومَن ذا له حق التُّراثِ بما وجب؟
فإن كان عباسٌ أحقُّ بتلكمُ	وكانَ عَلِيٌّ بعد ذاك على سَبَبِ
فأبناءً عَبَّاسٍ هُم يَرِثُونه	كما العمُّ لابن العمِّ في الإِراثِ قد حَجَبِ

وهي طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبي، وقد أجازها الرشيد مع ذلك، فأحسن جائزتها، لم يجز الأدب، وإنما أجاز السياسة.

وقد انتهى بنا القول في أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعبارة كلها من هذه الناحية، أحدهما مروان بن أبي حفصة الشاعر السياسي لبني

العباس خاصة، والثاني السيد الحميري، وهو الشاعر السياسي لبني علي خاصة، وإن كان قد مدح بني العباس، وظفر بجوائزهم، وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية، فسنتهي إلى هذه النتيجة: وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً، وأكثرهم اتجاراً برأيه ودينه، كان كالبرامكة يتشيع للعلويين، ثم طمع في أموال الرشيد، فأنكر العلويين، وأثر عليهم بني العباس، وهو يقسم ما يستحل ذلك! ... وفي الحق أنه لم يكن يحب آل علي ولا بني العباس، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس، الذين يذهبون مذهب البرامكة، يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً، يخفي أطماعه ومآربه الفارسية، أما مروان بن أبي حفصة فأسرته كلها من أتباع بني أمية وأنصارهم، والغلاة في مدحهم وتأييدهم، ولكن الله أدال من بني أمية لبني العباس، فدار مع الأيام، ووجد في ذلك مغنماً؛ فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء، وأما السيد الحميري فعلوي المذهب، صادق في علويته، مسرف فيها إسرافاً لا يعدله إسراف، ولكن الله أدال من بني أمية لبني هاشم، وكان السيد كغيره من الناس، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين، انقسمت شيعة العلويين، فمنهم من أعلن حقه وسخطه على بني العباس، فاشترك في فتن العلويين وثوراتهم، ومنهم من اتقى، فحفظ الود لآل علي، وجامل العباسيين وأخذ أموالهم، ومن هؤلاء السيد الحميري، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية، ونحسب أن الخير في إرجائه إلى الأسبوع الآتي.